الفصل الحادى والثلاثون

رهط الشـــورى

« أعطى موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى
ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة »
على بن أبى طالب

دفن عمر ، وفرغ الناس لأمر دنياهم ، فراحوا يتساءلون عمن يكون خليفة بعده ، وسرى فى يثرب قلق ، ورهبة ، ترى ما يفعل من حصرت الخلافة فيهم ! وأشفق المشفقون على المسلمين أن ينشقوا طوائف وشيعاً ، وأن يدب الخلاف بينهم ولما يستقر الإسلام بعد فى الأمصار التى فتحوها ، وراح المخلصون يدعون الله أن يجنبهم فتنة الدنيا .

وأقبل سعد ، وكان شارد الفكر ، يفكر فى أمر الخلافة ، وراح يفكر فى منافسيه ، فرأى براجح عقله أن هناك من هو أحق بها منه ، وأيقن أنه لو تخلى وتنازل عن حقه لحصر الخلاف فى نطاق ضيق ، ولجنب المسلمين الانشقاق والتشاحن ، فراحت فكرة التنازل تراوده ، وتحتل فكره ، وبلغ سعد حجرة عائشة فدخلها ينتظر أهل الشورى ، وأقبل على وقابل عمه العباس ، والتفت إليه وقال :

ـــ سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان ، أو يوليها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخران معى لم ينفعانى ، بله إنى لا أرجو إلا أحدهما .

فقال له العباس :

— لم أدفعك فى شىء إلا رجعت إلى مستأخرا بما أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت ، وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سماك عمر فى الشورى ألا تدخل معهم فأبيت . احفظ عنى واحدة ، كلما عرضوا عليك القوم فقل : لا ، إلا أن يولوك .

ودخل على حجرة عائشة ، ثم أقبل عثمان والزبير وعبد الرحمن ، ولم يقبل طلحة فقد كان غائباً ، ودخل ابن عمر ، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب ، فلمحهما سعد ، فحصبهما وأقامهما ، وقال لهما :

— تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى .

ودار النقاش بين أهل الشورى ، وتنافس القوم ، وكثر بينهم الأخذ والرد ، والجذب والشد ، وما كان كلامهم ليؤدى إلى نتيجة حاسمة ، فجعل كل منهم يذكر فضله وأحقيته بهذا الأمر دون الجميع ، ورأى عبد الرحمن ابن عوف أن الأيام الثلاثة التى حددها الخليفة الراحل لاختيار الخليفة الجديد ستنقضى قبل اختيار أمير المؤمنين لو استمر الأخذ والرد ، والجذب والشد ، فقال :

— أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟

فلاذ الجميع بالسكون ، وهم سعد أن يخرج نفسه ، ولكنه أحجم فإنه لا يريد أن يتحمل مسئولية تولية أفضلهم ، وساد السكون برهة ، فقال عبد الرحمن :

— أنا أنخلع منها .

فقال عثمان :

— أنا أول من رضى ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أمين فى الأرض ، أمين فى السماء » .

فقال الزبير :

— قد رضينا .

وقال سعد :

— قد رضينا .

وظل على ساكتاً لا ينبس ، وتذكر قول العباس له : كلما عرضوا عليك القوم قبل لا : إلا أن يولوك ، وهم أن يرفض هذا ، ولكن صوت عبد الرحمن بن عوف أذنه :

— ما تقول يا أبا الحسن ؟

فقال على :

— أعطنى موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة .

فقال عبد الرحمن :

— أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين .

فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله : وانصرف الجميع وقد ترك الأمر بين يدى عبد الرحمن بن عوف .

انطلق عبد الرحمن حتى أتى علياً على انفراد ؛ فقال له :

— إنك تقول إنى أحق من حضر بالأمر لقرابتك ؛ وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ؛ ولم تبعد ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ؛ من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟

— عثمان .

وانصرف من عند على وانطلق إلى عثمان وخلا به وقال له :

— تقول شيخ من بنى عبد مناف ؛ وصهر رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وابن عمه، ذى سابقة وفضل ولم تبعد ، فلم يصرف هذا الأمر عنى؟ ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟

— على .

وانصرف من عند على وقابل سعداً وحادثه ثم تركه ، وانطلق إلى الزبير؛ وقابل على سعداً وكان معه الحسين فقال لسعد :

— اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً ، أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبرحم عمى حمزة منك ألا تكون لعبد الرحمن لعثمان ظهيراً على . فإنى أدلى بما لا يدلى به عثمان .

فأطرق سعد ولم يحر جواباً .

راح عبد الرحمن يدور على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس ، يشاورهم ويسألهم عمن ينتخبونه خليفة لهم ، وانقضت الأيام . ولم تبق إلا الليلة التى ينقضى فى صبيحتها الأجل . وبلغ الجهد من عبد الرحمن منتهاه . إنه لم يذق كثير غمض ، فأرسل فى طلب الزبير وسعد ، فوافاه الزبير فى المسجد . فسأله عبد الرحمن للمرة الأخيرة ، فقال الزبير :

— نصيبى لعلى .

وأقبل سعد فى سكون الليل . والناس نيام ، وقابل عبد الرحمن ، وأخذا بأطراف الحديث ، فقال عبد الرحمن :

— أنا وأنت كلالة ، فاجعل نصيبك لى فأختار .

— إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب الى .

أيها الرجل ، بايع نفسك وأرحنا : وارفع رءوسنا .

— يا أبا اسحاق إنى قد خلعت نفسى منها على أن أختار لا يقوم مقام أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس .

— فإني أخاف أن يكون الضعف قد أدركك . فامض لرأيك . فقد عرفت عهد عمر .

أصبح الصباح ، وخرج الناس إلى المسجد زرافات زرافات ليروا ما قر عليه رأى رهط الشورى . وصلى الناس الصبح ثم جمع عبد الرحمن الرهط ، وأرسل إلى أمراء الأجناد . وتوافدت جموع الناس حتى التجّ المسجد بأهله ، ووقف عبد الرحمن . فسكت الجميع كأن على رءوسهم الطير . وأعاروه سمعهم ليسمعوا ما ينطق به حكم القضاء . فقال عبد الرحمن :

— أيها الناس . إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علموا من أميرهم .

فصاح أحدهم :

— إنا نراك لها أهلا .

فقال عبد الرحمن :

— أشيروا علي بغير هذا .

فقال عمار :

— إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليا .

فصاح المقداد بن الأسود :

— صدق عمار ، إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا .

فصاح ابن أبي سرح :

— إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان .

فصاح آخر مؤمنا على هذا القول :

— صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا .

فثار عمار وشتم ابن أبي سرح وقال :

— متى كنت تنصح المسلمين .

وراح بنو هاشم يعددون مناقبهم ، وأخذ بنو أمية يذكرون فضلهم، وراح سعد يرقب مايحدث فرأى الفتنة تطل عليهم ، وتأهب لأن تشب أظافرها فيهم فتمزق شملهم ، وتفرقهم شيعاً ، وصك أذنيه صوت عمار وهو يصيح :

ـــ أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم .

وبلغ سمعه قول رجل لعمار :

ـــ لقد عدوت طورك يابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟

فاقترب سعد بن عبد الرحمن وقال له :

ـــ ياعبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس .

فأشار عبد الرحمن للناس ، فلاذوا بالصمت فقال :

ـــ إني قد نظرت وشاورت فلاتجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا .

ودعا عليا فقال :

ـــ عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟

فسرى الأمل الدفيء في صدور أنصار علي ، فهبا قايل ينادي به خليفة المسلمين ، وقال علي :

ـــ أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي .

ودعا عبد الرحمن عثمان وقال له :

ـــ عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله ، وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده .

ـــ نعم .

ـــ إني أبايعك أميراً للمؤمنين .

فثار أنصار علي ، وأظهروا استياءهم من هذا القرار ، والتفت علي إلى عبد الرحمن وقال :

— حيوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ماتصفون .

الفصل الثانى والثلاثون

عثمان أمير المؤمنين

« ومن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن
أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما »
« قرآن كريم »

قال عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان :

— إنى أبايعك أميراً للمؤمنين .

وسمع الناس مقالة عبد الرحمن فانجفلوا إلى عثمان ، وراحوا يبايعونه ، وتقدم سعد منه وبايعه ، ثم تقدم الزبير ، وتلكأ على ، وخشى عبدالرحمن مغبة هذا التلكؤ ، فأسرع إلى على قبل أن يندلع لهيب الفتنة وقال له :

— « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما »

فراح على يشق الناس ، حتى بلغ عثمان الجالس على الدرجة الثانية من المنبر وهو يقول :

— خدعة وأيما خدعة.

ثم تقدم منه وبايعه ، فاطمأنت القلوب ، فلن يشق أحد عصا المسلمين ، وبايع الناس وانصرف عثمان والناس معه إلى بيت فاطمة ابنة قيس ، وجلس على وسعد وعبد الرحمن والزبير معه ، فقام المغيرة خطيباً ، فقال : يا أبا محمد ، الحمد لله الذى وفقك ، والله ما كان لها غير عثمان .

فقال عبد الرحمن :

— يا بن الدباغ ، ماأنت وذاك ، والله ما كنت أبايع أحداً إلا قلت فيه هذه المقالة .

ونظر عثمان إلى المغيرة وأطرق ، وقد اعتزم فى نفسه أمراً ، لقد اعتزم عزله عن الكوفة وتولية سعد بدله .

جلس عثمان فى المسجد ، وطلب من سعد أن يوافيه بعبيد الله بن عمر المحبوس فى داره ، فانطلق سعد ، وفى الطريق راحت الصور تمر فى مخيلته ، فرأى عمر والدم يتدفق من جراحه ، ثم رآه وهو يقضى ، ورأى بعين خيالة ابنه عبيد الله وقد خرج من الدار بعد موت أبيه ، وقد اشتمل على السيف لايلوى على شىء ، ومرت بخياله صورة ذلك الذى جاءه مسرعاً يخبره أن عبيد الله قد قتل الهرمزان لأنه أعطى أبا لؤلؤة الخنجر الذى قتل به عمر ، ثم جاءه آخر وأنبأه أن عبيد الله قد قتل جفينة غدراً ، وتذكر خروجه مسرعاً ليرى ماحدث ، فرأى عبيد الله والسيف فى يده ، وهو يصيح : والله لأقتلن رجالا ممن شرك فى دم أبى ، والناس تخشى الاقتراب منه ، فانقض عليه ، ونزع منه السيف ، ولكنه راح يقاوم ويثور ويتوعد ، فجذب شعره حتى أضجعه إلى الأرض ، ثم اقتاده إلى داره وحبسه فيه . تذكر سعد كل ذلك وهو فى طريقه إلى الدار ، ولما بلغ الدار ، أخرج عبيد الله وجاء به عثمان ، فالتفت عثمان إلى من عنده وقال :

— أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الإسلام مافتق .

فقال على :

— أرى أن تقتله .

فقال بعض المهاجرين مستنكرين :

— قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ؟

وأدلى عمرو بن العاصى بدلوه فقال:

— ياأمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك .

فطأطأ عثمان رأسه قليلا ، ثم رفعها وقال :

— إلى بابن الهرمزان.

فجىء بابن الهرمزان ، ولما مثل بين يدى عثمان قال له :

— يابنى ، هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب فاقتله .

فأخذ ابن الهرمزان عبيد الله وانطلق ، وخرج الناس خلفه ، وأخذ بعض الناس يلتمسون من ابن الهرمزان العفو عنه ، فالتفت إلى الناس وقال.

— إلى قتله؟

— نعم .

— أفلكم أن تمنعوه ؟

— لا .

— إنى أتركه لله ولكم .

وترك ابن الهرمزان عبيدالله، وأطلق سراحه، فهجم الناس على ابن الهرمزان والفرح يهزهم، واحتملوه على رءوسهم وأكتافهم ، وعادوا به إلى منزله فرحين .

الفصل الثالث والثلاثون

ولاية سعد الكوفة

« أوصى الخليفة من بعدى أن يستعمل سعد
ابن أبى وقاص ، فانى لم أعزله عن سوء »
عمر بن الخطاب

استقر الأمر لعثمان ، فراح يفكر فى أمر العمال . فرأى أن يعزل المغيرة عن الكوفة ، وأن يولى سعدا فهو أعلم الناس بها وبأهلها ، فبعث إليه ، وأمره أن يتجهز للخروج إلى الكوفة ، فحمل أزواجه وأولاده وعاد إلى قصر سعد .

انقضت سنة وسعد فى الكوفة يقوم بشئونها ، وكان على بيت المال عبد الله بن مسعود ، وأحس سعد فى يوم من الأيام حاجة إلى المال : فانطلق إلى بيت المال وسأل ابن مسعود أن يقرضه مايحتاج إليه ، فأقرضه من بيت المال ، ومرت الأيام ولم يستطع سعد أن يسدد دينه ، فجاءه ابن مسعود وسأله أن ادفع إلى بيت المال ما أخذت ، فاعتذر إليه سعد وطلب منه أن يمهله قليلا ، ولكن ابن مسعود أصر على وجوب السداد فورا ، فأخبره سعد أنه لا يملك ما يوفى الدين ، وأنه إذا خرج عطاؤه سدد ماعليه .

لم ينتظر ابن مسعود طويلا ، بل استعان بأناس وبعثهم إلى سعد يطلبون منه سداد ما أخذ ، فاعتذر إليهم بعدم قدرته على السداد ، ولم يكتف بذلك ، بل بعث إليه أناساً يطلبون منه استنظاره ، ولكن ابن

مسعود أبى ، وانتشر خبر دين سعد فى الكوفة ، فانقسم الناس فريقين ، فريق مع سعد ، وفريق مع ابن مسعود ، وارتفع الجدل بين الفريقين ، ونزغ الشيطان بينهما وراح كل فريق يلوم الفريق الآخر ، فانتقلت المسألة من دين ومطالبة إلى تحزب بين فريقين .

وفى يوم جلس سعد وابن أخيه هاشم بن عتبة وبعض نفر من المسلمين ، وأقبل ابن مسعود ، فالتفت إلى سعد وقال :

ـ أد المال الذى قبلك .

فرفع سعد نظره إليه وقد بان الغضب فى وجهه وقال :

ـ ما أراك إلا ستلقى شرا . هل أنت الا ابن مسعود عبد بنى هذيل .

فثار غضب ابن مسعود فقال :

ـ أجل والله إنى لابن مسعود ، وإنك لابن حميمة .

ورأى هاشم ارتفاع الجدل بينهما ، وخشى اندلاع لهيب المناقشة الحادة التى يخاف عقباها ، فشاء أن يطفئها فقال :

ـ أجل والله ، إنكما لصاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليكما .

فخرج ابن مسعود ولكنه كان يعيد الكرة بين الفينة والفينة ، واستمر التحزب بل ازداد على الأيام قوة ، ورأى أحد رسل عثمان ما عليه أهل الكوفة من فرقة ، فعاد إلى عثمان وأنبأه كل شىء ، أنبأه نبأ الخلاف الذى ثجر بين سعد وابن مسعود ونبأ افتراق الناس وبعضهم يلوم بعضا ، فغضب عثمان على كل من سعد وابن مسعود فأرسل إلى سعد أنه قد عزله عن ولاية الكوفة ، واستعمل الوليد بن عقبة .

بلغ سعد أن عثمان قد عزله ، فراح يعد حوائجه للعودة إلى المدينة . وفيما هو يتجهز للعودة ، دخل ابنه عليه ، وسأله ما يفعل فقال :

ـ سنعود إلى المدينة :

— ولم ؟

— عزلنا عثمان .

فثار الابن ، وراح يردد : « كيف يفعل عثمان هذا ؟ ونحن الذين جئنا به إلى الخلافة ، واستمر فى التحدث عن فضائلهم ، فالتفت أبوه اليه وقال :

— يابنى إياك والكبر ، وليكن فيما تستعين به على تركه علمك بالذى فيه كنت ، والذى إليه تصير ، وكيف الكبر مع النطفة التى منها خلقت ، والرحم التى منها قذفت ، والغذاء الذى به غذيت .

وخرج سعد من الكوفة للمرة الأخيرة ، فلن يشاهدها بعد اليوم ، ولن يعود إليها ، وانطلق الى المدينة ليشاهد ثورة الأمصار عن كثب .

الفصل الرابع والثلاثون

ثورة الأمصار

« الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون
أنهم يحسنون صنعا » قرآن كريم

عاد سعد إلى المدينة ، ومكث بها مدة ، وخالط أهلها ، فوجد تغيرا وتبدلا ، وجد الناس يتهامسون ويتناقلون أخبار الأمصار ، ويوسعون الأرض ذاعة ، فرأى محادثة أهل الرأى فى ذلك ، فاجتمع بعلى وطلحة والزبير ، فأخذوا يتذاكرون ما يخوض الناس فيه من حديث تذمر الأمصار ، وتأهبهم للانقلاب على عثمان ، فجمعوا رأيهم على مفاتحة عثمان فى ذلك ، فانطلقوا إليه ، واجتمعوا به وقالوا له :

— ياأمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟

— لا والله .

— فإنا قد أتانا أن الناس فى الأمصار مستاءون من عمالهم ، ومتذمرون من سوء تصرفهم ، وإنهم يستعدون للثورة عليك .

فأطرق عثمان برهة ثم رفع رأسه وقال :

— فأنتم شركائى وشهود المؤمنين ، فأشيروا على .

— نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .

وأرسل عثمان الرجال وعادوا جميعا من الأمصار وقد قالوا :

— ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، الأمر أمر المسلمين .

ولم يعد عمار بن ياسر الذى أرسل إلى مصر ، فحسب الناس أنه قد اغتيل ، ولكن عمارا كان فى مصر قد اتصل بالثوار ، وكان يستمع إلى شكاياتهم حتى اقتنع بها فانضم إليهم .

واستمرت الشائعات ترد إلى المدينة ، فيرفعها أهل الشورى إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى الأمصار : أما بعد ، فإنى آخذ العمال بموافاتى فى كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يرفع على شىء ، ولا على أحد من عمالى الا أعطيته ، وليس لى ولعمالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون ، فيمن ضرب سرا ، وشتم سرا ، من ادعى شيئا من ذلك فليوافى الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان منى أو من عمالى ، أو تصدقوا ، فإن الله يجزى المتصدقين . ولم يكتف عثمان بذلك ، بل بعث إلى عمال الأمصار ليوافوه ، وليسمع منهم ما يسخط الناس ليعمل على إزالة أسباب شكواهم ، فوافاه العمال ، فقال لهم :

— ويحكم ! ماهذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ، وما يعصب هذا إلا بى .

— ألم تبعث ؟ ألم ترجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء ؟ لا والله ماصدقوا ولا برروا .

واستمر الحديث بين عثمان وعماله ، ثم خرج العمال جميعا وبقى معاوية ، فأرسل عثمان إلى سعد وعلى والزبير وطلحة ، وقدم سعد ودخل على أمير المؤمنين ، وانتظر حتى يتم عقد أهل الشورى ، فلما التأم الجمع ، التفت معاوية إليهم وقال :

ـــ أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرته فى الأمة ، وولاة أمر هذه الأمة، لا يطمع فى ذلك أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع ، وقد كبرت سنه ، وولى عمره ، ولو انتظرتم به الهرم كان قريبا ، مع إنى أرجو أكرم على الله أن يبلغ به ذلك ، وقد فشت قالة خفتها عليكم ، فما غبتم فيه من شىء فهذه يدى لكم به ، ولا تطمعوا الناس فى أمركم ، فوالله لئن طمعوا فى ذلك لا رأيتم فيها أبدا إلا إدبارا .

فالتفت على إلى معاوية وقال له :

ـــ ومالك وذلك ؟ وما أدراك ، لا أم لك .

فقال معاوية فى هدوء :

ـــ دع أمى مكانها ليست بشر أمهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبى صلى الله عليه وسلم ، وأجبنى فيما أقول لك .

فقال عثمان :

ـــ صدق ابن أخى ، إنى أخبركم عنى وعما وليت ، إن صاحبى اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ، ومن كان منهما بسبيل احتسابا ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى قرابته ، وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شىء من ذلك المال لمكان ما أقوم به فيه ، ورأيت أن ذلك لى ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمرى لأمركم تبع .

فقال سعد :

ـــ أعطيت مروان فرده .

وقال الزبير :

ـــ أعطيت عبد الله بن خالد فرده .

فوعدهم عثمان برد ما أعطاهم ، فخرجوا من عنده راضين .

كاتب أهل مصر أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة ،

وتواعدوا على اللقاء فى المدينة ، فخرج أهل مصر إلى المدينة مدعين الحج ، وخرج أهل الكوفة والبصرة ، وبالقرب من المدينة سارت الرسل بين جماعات الثوار .

بلغ عثمان مسير الثوار إلى المدينة ، وعلم أن المصريين قد نزلوا بذى خشب ، وكان عثمان يعلم منزلة على فى الناس ، فأرسل إليه وطلب منه أن يخرج للقائهم وردهم ، وأرسل إلى عمار بن ياسر أن يخرج مع على ، ولكن عماراً أبى ، فأرسل عثمان إلى سعد وقال له :

— أرسلت إلى عمار أن يخرج مع على فأبى ، ألا تأتيه فتكلمه أن يخرج مع على ؟

فخرج سعد وانطلق ودخل على عمار وسلم عليه ثم قال :

— يا أبا اليقظان ألا تخرج فيمن يخرج مع على ، وهذا على يخرج فاخرج معه ، واردد هؤلاء القوم عن إمامك ، فإنى لا أحسب أنك لم تركب مركباً هو خير لك منه .

— لا .

— اخرج يا عمار مع على وكلم الناس لعلهم يرجعون عن المدينة .

— والله لا أردهم عنه أبدا .

وأيقن سعد ألا فائدة من طلب عون عمار فقد حاول أن يفعله بكل وجه دون جدوى ، فعاد إلى عثمان وأخبره بقول عمار ، ولكن عثمان لم يصدق قول سعد ، فأقسم له سعد أنه يناصحه ويقول له الحق .

وعاد على إلى عثمان وأخبره أنه تمكن من إقناع أهل مصر ، وأنهم قد عادوا إلى ديارهم ، ويرى هذا الرأى فى المدينة فانتعشت ، وحسب أهل يثرب أن الزوبعة قد مرت ، ومادار بخلدهم ، أنها تستجم لتقتلع كل ما يصادفها ، وتخلع كل ما يقف فى طريقها .

انقضى اليوم بسلام ، وأقبل اليوم الثانى ، فجاء مروان عثمان وقال له :

— تكلم، أعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا ، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلا ، فإن خطبتك تسير فى البلاد ، قبل أن يتحاب الناس عليك من أمصارهم ، فيأتيك من لا تستطيع دفعه .

فأبى عثمان أن يخرج ليخطب ولكن مروان لم يزل به حتى خرج ، واعتلى المنبر وقال : « أما بعد ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم » .

وكان عمرو بن العاص فى المسجد ، وكان عاملا على مصر وقد عزله عثمان فساءه أن تخمد نار الفتنة ، وشاء أن يحركها ويؤجج نارها ويزكيها ، حتى يتذلع لهيبها ، فيثأر لعزله ، فانتهز الفرصة المواتية فاهتبلها وصاح من ناحية المسجد :

— اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت نهابير وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب .

وهم عثمان أن يرد على عمرو ، ولكن صوتاً آخر نادى من ناحية أخرى :

— تب إلى الله وأظهر التوبة يكف الناس عنك .

فرفع عثمان يديه مدا واستقبل القبلة فقال :

— اللهم إنى أول تائب تاب إليه .

وعاد عثمان إلى داره ، وخرج عمرو بن العاص ليؤلب الناس عليه . وبينما أهل المدينة فى دورهم هادئون ، إذ ارتفعت أصوات بالتكبير ، فارتجت المدينة ، وخرج الناس يسألون عن الخبر ، وخرج سعد فعلم أن المصريين قد قفلوا راجعين بعد مسيرهم ، وأنهم حاصروا عثمان ، فانطلق إلى القوم يحادثهم ، فقالوا له :

— من كف يده فهو آمن .

وجاء على فأسرع سعد إلى الثوار فسألهم :

— ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

— أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا .

وأقبل أهل الكوفة والبصرة يسألهم على :

— وأنتم ما جاء بكم .

— نحن ننصر إخواننا .

فقال على :

— كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم محرنا ، هذا والله أمر أبرم بالمدينة .

— ضعوه على ماشئتم ، لاحاجة لنا فى هذا الرجل ، ليعتزلنا .

واعتزل الناس فى دورهم ، وفى يوم اجتمع الناس فى المسجد وكان الثوار جالسين فيه ، وخرج عثمان فسكتوا فكأن على رأسهم الطير ، وساد المسجد سكوت الرموس ، فخطبهم عثمان وأعطاهم الرضا وبكى واستعرددد : « اللهم إنى أتوب إليك ، اللهم إنى أتوب إليك ، اللهم إنى أتوب إليك ، إذا دخلت منازلى فادخلوا على ، فوالله لا أحتجب منكم ، ولأعطينكم الرضا ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأحمين مروان وذويه .

عاد عثمان إلى داره ، وخرج سعد ليزور خليفة رسول الله ، فرأى الناس يركب بعضهم بعضاً ثم رأى باب عثمان يفتح ويخرج منه مروان ويقول :

— شاهت الوجوه إلا من أريد ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإن يكن لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه وإلا قر فى بيته .

فعجب سعد كيف يقول مروان ذلك بعد مقالة عثمان ، وكيف يقبل عثمان أن يكون سيقة لمروان يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن وصحبة الرسول ؟ ! يا لمروان إنه يقود عثمان إلى الهلاك .

وانطلق سعد وقد عزم على أن يعتب على مروان .

ثار الناس بعد خطاب مروان ، وبات أهل يثرب يوجسون خيفة ، وما استطاع الناس أن يبرحوا دورهم ، واعتزل عثمان فى داره ، وما كان يصلى بالناس ، ووقف على داره أبناء الصحابة يذبون عنه ، ويمنعون الثوار من الدخول عليه .

ورأى عثمان ثورة الناس الجامحة ، فأرسل إلى على : ولكن علياً ساءه تصرف عثمان ، ولعب مروان به فصاح بصوت عال مغضب :

ـــ قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد .

وجاء سعد ودخل على عثمان وغاب عنده مدة طويلة ، وخرج من عنده ، فرأى عند الباب أناساً كثيرين يصيحون يطلبون دمه فاسترجع ، وبانت الدهشة فى وجهه ، أبلغت الثورة حد طلب دم خليفة رسول الله ، والتفت حوله فرأى مروان ، فطأطأ رأسه ، وبان الندم فى وجهه ، لقد هاجم عثمان بعد خطبة مروان الأخيرة ، واتهمه بالانصياع إلى مروان والانقياد له ، واقترب مروان منه وقال :

ـــ الآن تندم ، أنت أشعرته .

ـــ أستغفر الله ، لم أكن أظن الناس يجترءون هذه الجرأة ، ولا يطلبون دمه ، وقد دخلت عليه الآن ، فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك ، فنزع عن كل ما كره منه وأعطى التوبة وقال : لا أتمادى فى الهلكة ، إن من تمادى فى الجور كان أبعد من الطريق فأنا أتوب وأنزع .

ورأى سعد الجموع الثائرة ، فاستل سيف ، وتأهب للدفاع عن عثمان خليفة المسلمين ، فقال له مروان :

ـــ إن كنت تريد أن تذب عنه فعليك بابن أبى طالب .

فأطرق سعد مفكراً ، فوجد أن علياً وحده هو الذى يستطيع أن يرد هذه الجموع الثائرة لمكانته ، ولحبهم إياه ، فانطلق وقد عقد العزم على محادثة على . خرج سعد حتى أتى علياً فى المسجد وهو بين القبر والمنبر وقال :

ـــ يا أبا الحسن قم فداك أبي وأمي ، جئتك والله بخير ما جاء به أحد قط إلى أحد ، تصل رحم ابن عمك ، وتأخذ بالفضل عليه ، وتحقن دمه ، ويرجع الأمر على ما تحب ، قد أعطى خليفتك من نفسه الرضى .

ـــ تقبل الله منك يا أبا اسحاق ، والله ما زلت أذب عنه حتى إني لأستحي ، ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر هم صنعوا به ما ترى ، فإذا نصحته ، وأمرته أن ينحيهم استغشني حتى جاء ما ترى .

ـــ قد تاب .

ـــ أي خير توبته هذه ؟

وقام علي وانصرف وقفل سعد عائداً إلى داره ، ومكث بها ، وقد وقال :

ـــ لا أشهد قتله .

وجاءه خبر قتله ، فأطرق حزيناً وغمغم : « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

الفصل الخامس والثلاثون

الاعتزال

« إن الله يحب العبد الغنى الخفى التقى »
حديث شريف

قتل عثمان ، وخشى الناس الثوار فاعتكفوا فى دورهم ، واستمرت المدينة تموج بالثوار موجا ، وأصبحت لا أمير لها ، وفكر الناس فى مبايعة خليفة لهم ، فانطلق المصريون إلى على ، ولكنه اختبأ منهم ، وظلوا يبحثون عنه حتى لقوه ، فباعدهم وظل يتبرأ منهم ومن مقالتهم ، وانطلق الكوفيون إلى الزبير ، وأرسلوا إليه رسلا لمحادثته فى أمر البيعة ولكنه باعدهم وتبرأ منهم ، والتمس البصريون طلحة فلقيهم ولم يقبل بيعتهم . وانقضى اليوم الأول ولم يجد الثوار من يقبل الخلافة ، وبقى عثمان فى داره لا يجرؤ أحد على دفنه خشية بطش الثوار به .

وطلعت شمس اليوم الثانى ، فراح الثوار يفكرون فيمن يولونه الخلافة غير هؤلاء الذين رفضوها ، فلم يجدوا من أهل الشورى إلا سعدا ، فبعثوا إليه وفدا يكلمه فى ذلك . خرج وفد الثوار وجاءوا سعدا وقالوا له :

— إنك من أهل الشورى فرأينا فيك يجتمع فأقدم نبايعك .

فقال لهم :

— إنى وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لى فيها على حال .

وصمت قليلا ثم قال :

لا تخلطن خبيثات بطيبـــة واخلع ثيابك منها وانج عريانا

وانقضى اليوم الثانى ولم يهتد الثوار إلى خليفة ، وبقى عثمان فى داره لم يقبر ، وأهل داره يخشون الخروج لدفنه رهبة من الثوار وبطشهم ، وتصرم اليوم الثالث كما تصرم سابقاه ، وجاء الزبير إلى بيت عثمان ، ولما هدأ الناس وأرخى الليل سدوله ، خرجوا بعثمان وهم يتلفتون وجلين خشية أن يفاجئهم الثوار فينكلوا بهم ، حتى إذا بلغوا جدارا ، دفنوه وقفلوا راجعين مسرعين لا يلوون على شىء ، وهكذا تم دفن عثمان خليفة المسلمين ، وصهر الرسول ، فى هجعة الليل ، وغفلة من الناس .

نامت المسلمون حولهم ، فوجدوا فوضى ضاربة أطنابها ، ووجدوا ثوارا يحتلون المدينة ولا أمير عليها ، فانطلق أصحاب الرسول حتى دخلوا منزل علىّ ، فقالوا له :

ـــ إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ـــ لا تفعلوا ، فإنى أكون وزيراً خير من أن أكون أميرا .

ـــ لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك .

ـــ ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفيا ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين .

وخرج علىّ إلى المسجد وبايعه أصحاب الرسول إلا سعدا فإنه لم يبايعه ، فإنه لم ينس لعلى يوم جاءه قبل مقتل عثمان يسأله أن يكفكف الناس عن عثمان ورفضه ، ذلك بحجة أنه كثيرا ما نصحه ولكنه كان يستغشه .

وبايع الناس لعلى ، وأصبح خليفة للمسلمين ، وابتدأت الفتن تجر بعضها

بعضا ، فقد بايع طلحة والزبير ، وبعض نفر من المسلمين وهم يمنون النفس بمواتاة الفرصة التى يتقلبون فيها على على ، وينتزعون الأمر منه ، وكانت عائشة أم المؤمنين قد خرجت للحج وعثمان محصور ، فلقيها رجل من أخوالها ، وهى فى طريقها إلى المدينة فقالت :

— ما وراءك ؟

— قتل عثمان ، واجتمع الناس على على ، والأمر أمر الغوغاء .

— ما أظن ذلك تاما ردونى .

وعادت راجعة إلى مكة ، وكان طلحة والزبير قد استأذنا عليا فى العمرة فأذن لهما ، وبلغت عائشة مكة ودخلتها فوافاها عبد الله بن عامر الحضرمى وكان أمير عثمان على مكة ، فقال :

— ما وراءك يا أم المؤمنين ؟

— ردنى أن عثمان قتل مظلوما ، وأن الأمر لا يستقيم ، ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام .

واجتمع طلحة والزبير بعائشة أم المؤمنين ، واتفقوا على المطالبة بدم عثمان ، فقامت أم المؤمنين تحرض الناس فقالت :

— أيها الناس ، إن هذا حدث عظيم ، وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه ، فقد كفاكم أهل الشأم ما عندهم ، لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم .

وشخصت أم المؤمنين إلى البصرة مع الشاخصين ، وخرج على لقتال شاق عصا الطاعة ، وابتدأت الحروب بين المسلمين ، فاعتكف سعد فى إبلة ، ولم يشأ أن ينضم إلى أحد الفريقين ، فكيف يشترك فى حرب يقتل المسلم أخاه المسلم ، إنه لا يقر أن يهرق المسلمون دماءهم فى محاربة إخوانهم فى الدين ، إنه امتنع عن مبايعة على ، ولكنه لا يقر محاربته ، إن

لعليا فضله ومنزلته ، واستمر معتزلا فى إبله ، وجاء ابنه عمر إليه يوما وقال له :

— الناس يتنازعون الإمارة وأنت هاهنا ؟ !

فصمت سعد قليلا : فاستأنف ابنه الحديث :

— اخرج يا أبت فإنك أحق بها من المتنازعين .

فقال سعد :

— لا ، لن أخرج أبدا ، إنى قد تركت الإمارة ، لا شأن لى فيها .

— ولم يا أبت ؟

— يا بنى ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يحب العبد الغنى الخفى التقى » .

وخرج ابن سعد ، والناس يتطاحنون فى سبيل الإمارة ، وبقى سعد فى عزلته ، وجاء هاشم بن أخيه إليه وقال له :

— يا عم ، هاهنا مائة ألف سيف يروقك أحق الناس بهذا الأمر

— إريد من المائة ألف ، سيفا واحدا إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا ، وإذا ضربت به الكافر قطع

الفصل السادس والثلاثون

معاوية فى مكة

« كذلك أورثناها قوماً آخرين »
قرآن كريم

دارت عجلة الزمن ، فطويت خلقاً كثيراً فى حروب المتقاتلين على الإمارة وطاحنت المتطاحنين ؛ فقتل أحدهم الزبير بن العوام يوم الجمل وعاد بسيفه إلى على ، فلما رأى على السيف ، طأطأ رأسه وقال :

— سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتم النصر لعلى يوم الجمل ، ولكن لم يتم له الأمر ، فهناك فى الشام معاوية بن أبى سفيان يطالب بدم عثمان ، ويناوىء علياً ، فسار على إليه والتقى الجمعان فى صفين ، وكاد جيش على أن ينتصر ، ورأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد ، وخاف فى ذلك الهلاك فالتفت إلى معاوية وقال :

— هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة ؟

— نعم .

— نرفع المصاحف ثم نقول : ما فيها حكم بيننا وبينكم : فإن أبى بعضهم أن يقبلها ، وجدت فيهم من يقول بلى ، ينبغى أن نقبل ، فتكون

فرقة تقع بينهم ، وإن قالوا بل نقبل ما فيها رفعنا هذا القتال عنا ، وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين .

ورفعت المصاحف ، فأثرت خدعة عمرو فى الناس فقالوا :

— نجيب إلى كتاب الله عز وجل ونثيب إليه .

كان سعد معتزلا ، ولكنه كان يخرج بين الفينة والفينة ليعلم ما تم بين المتقاتلين ، وفى يوم خرج إلى دومة الجندل يتنسم الأخبار ، فلمح فارساً مقبلا يثير النقع خلفه ، ولما اقترب الفارس تبينه سعد ؛ فإذا هو ابنه فسأله :

— ما وراءك ياعمر ؟

— قد حكم الناس أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، وقد شهدهم نفر من قريش فاشهدهم ؛ فإنك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد الشورى ، ولم تدخل فى شىء كرهته هذه الأمة ، فاحضر فإنك أحق الناس بالخلافة .

— لا أفعل . إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه يكون فتنة ، خير الناس فيها الخفى التقى ، والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً .

وانطلق سعد ، وجاء الحكمان إلى دومة الجندل ، وانتظر سعد موافاة ابنه ليخبره ما تم فى التحكيم ، وفى يوم وافى عمر أباه وقال له :

— تم الأمر لمعاوية .

— وكيف ؟

— خدع عمرو أبا موسى .

— وكيف تم ذلك ؟

— اتفقا فيما بينهما على أن يخلعا هذين الرجلين ، ويجعلا الأمر

شورى بين المسلمين ، فيختاروا لأنفسهم من أحبوا. فقام أبو موسى وقال: « إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإنى قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ، ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه وقال : « إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه ، فقال أبو موسى : « مالك ، لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » .

قال عمرو : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً » .

* * *

لم يسفر التحكيم عن نتيجة حاسمة ؛ فما توقف على عن القتال ، ولا أصبح معاوية خليفة المسلمين لا ينازعه منازع ، بل استمر القتال بين المسلمين ، فاتفق ثلاثة من الرجال على قتل على ومعاوية وعمرو ، فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، فأخذوا أسيافهم واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه ، وتوجه كل رجل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه الذى يطلب . ووافى الأجل ، فضرب ابن ملجم علياً بالسيف فقتله ، أما معاوية وعمرو فقد نجيا من القتل .

وبويع الحسن بن على خليفة المسلمين ، ولكن لم يلبث أن تنازل لمعاوية فأصبح أمير المؤمنين بلا منازع ، واستتب له الأمر ، وخرج

للحج فمر على المدينة : ودخل بيت سعد ودعاه للحج معه . وكان سعد آخر من بقى من أهل الشورى ، فخرج مع معاوية معززاً مكرماً ، ولما بلغا مكة ، طافا سوياً ، وانتهت مراسيم الحج ، فانصرف معاوية إلى دار الندوة وسعد برفقته . وجلس معاوية على سريره . وأجلس سعدا عليه معه . وأخذا بأطراف الحديث ، فراحا يتذاكران ويذكران ما مضى من أحداث . وعَرَّ معاوية إقبال سعد عليه فوقع فى على وشرع فى سبه . فبان الغضب فى وجه سعد وقام من على السرير وقال لمعاوية بصوت فيه حدة ، وفيه غضب :

— أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت فى سب على ، والله لأن يكون فى خصلة واحدة من خصال كانت لعلى أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس . والله لأن أكون صهراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لى من الولد ما لعلى . أحب الى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس . والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى ما قاله يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله . ليس بفرار يفتح الله على يديه » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قال له فى غزوة تبوك : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت .

وخرج سعد من دار الندوة مغضباً .

الفصل السابع والثلاثون

الفراق

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر
وما بدلوا تبديلا »

قرآن كريم

السابعة والثمانون سنة من عمر سعد ، شهد خلالها مولد الإسلام ثم نموه ، حتى إذا ما تم ليقف على قدميه أحاط به أعداؤه من كل جانب فاضطهدوا المسلمين ، فاضطهد سعد وعذب ، وطرد وشرد ، ولكنه احتمل صابراً ، واثقاً من أن النصر الأخير للإسلام والمسلمين ، واشتد ساعد الإسلام على الرغم من السيوف المتأرجحة فوق الرقاب ، فراح المسلمون يذبون عن دينهم ، ويدافعون عن كيانهم ، فخاض سعد فى سبيله معارك هائلة يشيب من هولها الوليد ، حتى توطدت دعائمه ، ورفعت أعلامه ، ورفرفت على العالمين ، فقرت عين سعد ، واطمأنت نفسه ، وأخذ الإسلام فى الإشراق ، وأخذ سعد فى الغروب ، فسقط أخيراً فريسة للضعف والمرض ، فلزم داره ، وأخذت صور الماضى الحبيب تتماثل أمام عينيه ، وراحت ذاكرته تمده بها دون ترتيب أو نظام ، وكثيراً ما كانت تلك الصور تتداخل بعضها فى بعض حتى تتمزج ويختلط عليه الأمر ، وكثيراً ما كان خياله يقفز به من مكة إلى المدينة إلى العراق ؛ رأى نفسه على راحلته يخرج مع النبى للحج ، فيسقط مريضاً عقب إتمام

مناسكه ، حتى يشرف على الهلال ، فيدخل محمد الحبيب عليه فى مرضه ، ويدعو له : « اللهم امض لأصحابى هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم » ، ولكن البائس سعد بن خولة يرثى له رسول الله إن مات بمكة ، ثم يقفز به خياله إلى المدينة فيرى نفسه يحفر مع الناس الخندق ، ويحمل التراب على عاتقه فتعترضهم كدية فيخبرون النبى صلى الله عليه وسلم خبرها فيضربها بمعوله فتنفتت ، وتبرق منها شرارة ، فيقول النبى : « ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها » إنه ليعى هذا الكلام الآن أكثر من أى وقت مضى ، لقد كان القدر آنئذ يشير إليه ، أن هذا هو قاهر الفرس ومحقق نبوءة نبيه ، وكر به خياله راجعاً إلى أول يوم سمع فيه بالاسلام فرأى نفسه حدثا يرى النبل فى مكة وأبا بكر يفد إليه ليبلغه نبأ ظهور دين جديد يدعو إلى الإخاء والمساواة وعبادة إله واحد لا شريك له ، وما أن تذكر النبل حتى قفز به خياله إلى يوم أحد ، يوم وقف بضع نفر من المسلمين يذب عن النبى ، فتطايرت سهامه حتى بلغ ما رماه ألف سهم ، وكان النبى يقول له : « ارم أيها الغلام الحزور ، فداك أبى وأمى » وتزاحمت الصور فى رأسه ، وبلغ منه الجهد فأغفى أغفاءة خفيفة ، وما لبث أن فتح عينيه ، فوجد رأسه فى حجر ابنه مصعب فحاول أن يبتسم ، ولكن الابتسامة ماتت على شفتيه قبل أن تولد ، فقد اشتد به الوجع ، ورأى مصعب ذبول أبيه ، وما يقاسيه من ألم ، فلم يتمالك نفسه ، فغامت عيناه بالدمع ، ثم أخذت الدموع تتساقط على خديه ، فلما رأى سعد ذلك ، قال بصوت ضعيف :

— ما يبكيك يابنى ؟ والله إن الله لا يعذبنى أبدا ، وإنى من أهل الجنة ، وأقفل عينيه قليلا ثم فتحهما وقال لمن حوله :

— إيتونى بتلك الجبة الصوف التى قاتلت بها المشركين يوم بدر ، فما خبأتها إلا لهذا اليوم .

فجىء بالجبة وتناولها فضمها إلى صدره ، وأسبل عينيه ، وأخذت مشاهد بدر تمر بمخيلته ، فارتسم على وجهه هدوء واطمئنان ، ومرت مدة ثم فتح عينيه وقال لمن حوله :

— كفنونى فيها .

وانبهرت أنفاسه ، وخرج نفس ما عاد غيره ، فقضى سعد نحبه فى قصره بالعقيق ، على مسيرة عشرة أميال من المدينة ، ولما بلغ أهل المدينة خبر موته ، انطلق الرجال إلى داره وجهزوه ، وكفنوه فى جبته التى خبأها يوم بدر لهذا اليوم ثم حملوه على الرقاب حتى بلغوا المدينة ، فلما دخلوا به المسجد ، طلب أزواج النبى أن يدخل به إلى حجرهن وأن يترك بها ليصلين عليه ، وتمت الصلاة ، فخرج به الناس من باب الجنائز ، وانطلقوا إلى البقيع ليقبروا آخر أهل الشورى ، ودمعهم جار ، وحزنهم عميق .

للمؤلف تحت الطبع

١ — همزات الشياطين

مصدر ببحث واف عن

الرواية والأقصوصة

٢ — أبناء أبى بكر